- المسؤولية من منظور المدرسة الفرويدية -

* أدولف هتلر أنموذجاً *

إعداد: مكاوي أيوب
- 3 رياضيات -

المنطلق:

يقول سيجموند فرويد: "إن السلوك هو ثمرة لدوافع نفسية لاشعورية ونزوات خفية مكبوتة".
دافع عن صحة المقولة.

طرح المشكلة:

تعد المسؤولية من القضايا الهامة التي شغلت الفلاسفة والمفكرين والساسة على مر الأزمنة والعصور، وهذا يدل على تعقيدها وتشابكها وتقاطعها مع الكثير من القضايا والمواضيع كالحرية ودراسة السلوك والشعور والتحليل النفسي (اليونغي) وهذا ما سنتناوله في موضوعنا الذي أثار تعارضاً وتضارباً كبيرين، فنفترض أن إنساناً ارتكب جرماً (كالقتل مثلاً) فكيف سيكون جزاؤه، هل نصلحه أم نعاقبه؟ إن فرويد يرى في هذا الصدد أن السلوك الإجرامي هذا له دوافع نفسية لاشعورية وأن وراءه - أي السلوك - نزوات وماضٍ لا يمكن تجاهله عند تطبيق الجزاء، فإلى أي مدى يمكن الدفاع عن صحة هذه الأطروحة؟

محاولة حلّ المشكلة :

• عرض منطق الأطروحة :

تُعرّف المسؤولية بأنها قدرة الفرد على تحمّل تبعات أفعاله خيرها أو شرّها ، وهذا يقتضي وجود قانون يأمر بالفعل أو بالترك وباختصار فالمسؤولية من حيث هي تبعة تتألف من ثلاثة عناصر : مخالفة وضرر وعلاقة سببية بينهما . وإذا كان سبب المسؤولية هو صدور الفعل عن الفاعل فإن المحتمل ألّا يشعر بمسؤولية ، ومن المحتمل أيضاً ألا يُعتبر الغير مسؤولاً ، وهذا يدلّ على أن المسؤولية لا تتوقف على القيام بالفعل فقط ، بل هي مشروطة بأمور تتعلق بالفاعل أيضاً . يقول رائد التحليل النفسي سيجموند فرويد : " إن السلوك هو ثمرة لدوافع نفسية لا شعورية ونزوات خفية مكبوتة " هذا يعني أن السلوك الإجرامي في نظر مدرسة فرويد له دوافع نفسية لا شعورية فهو مرتبط بالرغبات المكبوتة والنزوات الخفية وما عاشه الفرد في حياته الماضية فمثلاً عندما يفقد الطفل عطف وحنان والديه تتولد بداخله ميول عدوانية ، كذلك السارق إنما يهدف من وراء فعله إلى استرجاع ما سُلب منه في طفولته وعليه يجب التعامل مع المجرمين كمرضى يجب معالجتهم بالتحليل النفسي ويجب النظر إلى ماضيهم ودوافع سلوكهم قبل البتّ في عقابهم .

• تدعيم الأطروحة بحجج شخصية :

يُرجع العالم الإيطالي لامبروزو السلوك الإجرامي إلى أسباب وراثية فالمجرم في رأيه يحمل في جسمه كروموزوم الإجرام ، وهذا ما يُعرف بالحتمية البيولوجية - فالمجرم له استعداد طبيعي للإجرام ، يرث دوافع الجريمة المتمثلة في خصائص جسمية غير عادية كظهور نتوءات في الجمجمة وهبوط الجبين وغيرها فتجعله متوحشاً منذ البداية لا يمتثل للقانون فيقع فريسة للجريمة ، والمجرمون عنده خمسة أنواع مجرمون بالفطرة ، بالجنون ، بالعادة و مجرمون بالعاطفة أو الصدفة

ينبغي إصلاحهم وإعادة دمجهم في المجتمع، كما يُرجع العالم الإيطالي أيضاً إنريكو فيري - [ما يلفت النظر أن كلا العالمين إيطاليين - فهل لهذا علاقة بانتشار الجريمة في إيطاليا أو ما يعرف بالمافيا الإيطالية المعروفة عالمياً، وهل هي دراسة تحليلية للمجتمع أو لشخصية الفرد الإيطالي؟] - يُرجع السلوك الإجرامي إلى أسباب إجتماعية؛ لأن الفرد يعيش في بيئته مُتأثراً مُتأثِّراً ويتصرف تبعاً للجماعة التي ينتمي إليها ويقول فيري: "إن الجريمة ثمرة حتمية لظروف إجتماعية وتربوية خاصة" فانتشار الفقر والبطالة والتشرد والتفاوت الطبقي الرهيب يدفع بالأفراد إلى الإنحراف عن القانون بغية تأمين لقمة العيش أو كسب الثروة وعليه لا يمكن معالجة مشكلة الإجرام إلا بإصلاح الأوضاع الإجتماعية كتوفير مناصب الشغل وإزالة الفوارق وإرساء العدل. وبالعودة إلى الحتمية النفسية يقول كارل يونغ في كتابه "النازية في ضوء علم النفس" يقول: « لا يمكن إستئصال غرائز الإنسان القتالية لذلك لا يمكن تصور حالة من السلام المطلق » وبذكرنا للنازية لا يمكن إلا أن نعرج على زعيمها أدولف هتلر - الرجل الذي أراد عملياً احتلال العالم - فبالعودة إلى طفولته، نجده قد عاشها معذباً بسبب والده الذي كان يعامله بقساوة بالغة وكان يضرب أمه أمام أعينه مما جعله بعد ذلك شخصاً سيكوباتياً عصبي المزاج ومنحرف السلوك السوي المتوافق مع المجتمع والقيم الإنسانية وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن هتلر قد كان رساماً في شبابه، وقدم طلباً بالإنضمام إلى معهد الفنون أين قوبل بالرفض القاطع واستهزئ بلوحاته وأغلقت كل الأبواب في وجهه، كل هذا أفقده الثقة بنفسه وازداد شعوره بأنه غير مختص وخشي هجوم قافة عليه وتطور ذلك به إلى تحويل خوفه إلى غضب وقسوة متزايدة أو هستيريا، ويؤكد لنا الطبيب النفسي كارل يونغ

حالة هتلر بأنه مصاب بـ "سيودولوجيا فانتاستيكا" وهي ذلك النوع الذي يتميز بموهبة غريبة تحمل صاحبها يصدق أكاذيبه ولا شيء أكثر إقناعا من الكذبة التي يخترعها الإنسان ثم يصدق نفسه أو الفعل أو القصد الشرير الذين يعتبر المرء صحتهما أمرا بيّنا بذاته.

• عرض منطق الخصوم ونقده

يرى العقليون (المثاليون) أن حرية الإختيار سبب مسؤولية المجتمع أي أن المجرم حر يتصرف بإرادة وإمكانه الإمتناع عن الفعل السيء وأنه كائن عاقل يميز بين الخير والشر والعقاب عندهم له أغراض معنوية روحية ولذلك إنحصر في الفصل والتكفير عن السيئات.

النقد:

إن هذا الموقف قد بالغ في تحميل الفرد كامل المسؤولية عن أعماله واعتبره حرا في جميع تصرفاته كما نظر الى الجريمة فقط متجاهلا ظروف المجرم وأحواله النفسية والإجتماعية والدوافع الخفية وراء السلوك الإجرامي وبهذا تكون النظرية العقلية قد تناقضت مع الواقع لأن حرية الانسان نسبية ولا يمكن فصلها عن أحواله وظروفه.

حل المشكلة:

نستنتج من كل ماسبق أنه لا يمكن عزل المسؤولية عن أحوال وظروف المسؤول وأن العقاب وحده قد لا يحد من إنتشار الجريمة بل بالعكس سيولد روح الإنتقام وعليه الأطروحة صحيحة ويمكن الدفاع عنها.

إنتهى - 2015/02/16